الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكر دامي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ١٩٢ — الثلاثاء ٢٠ من شعبان سنة ١٣٦١ — ١ من سبتمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــدد

الحيـــاة الاجتماعية في مصر

يقصد بالحياة الاجتماعية بحث الحالة الاجتماعية لمجموع السكان دون الاقتصار على فئة معينة ربما كان لها من ظروفها الخاصة مالية كانت أو أدبية ما يجعلها تتمتع بحياة اجتماعية خاصة .

وعلى ذلك فإذا أردنا أن نستعرض الحياة الاجتماعية في مصر كان من الواجب أن نبدأ بدراسة الظواهر الاجتماعية البارزة التي نشاهدها والتي يكون في دراستها وعلاجها أثر على الحياة الاجتماعية العامة . ثم ندرس حياة الأغلبية الساحقة للسكان ، وهؤلاء هم سكان الريف وأعنى بهم الزارعين ، وسكان المدن وأعنى بهم المشتغلين بالصناعة والتجارة ، لأن حياتهم الاجتماعية هي الحياة الحقيقية للشعب المصري ، وهي التي تعطي صورة حقيقية عنها ، سواء كانت هذه الصورة تبعث على السرور أو تبعث على الأسى .

أما ما عدا ذلك من الصور فهي صور خلابة ليست من الحقيقة في شيء ، خدعتنا بها حقبة طويلة وخلنا أنها تمثل حياة البلد الاجتماعية ونعمنا بهذا الخيال ونسينا الحقيقة فأنسانا الله أنفسنا ، وأصبحنا في حالة اجتماعية غريبة بين الأمم الراقية .

وأهم هذه الظواهر العامة للحياة الاجتماعية في مصر ، هي الفارقات البعيدة المدى التي توجد بين طبقات الشعب بل وبين أفراد الطبقة الواحدة ، يتخذ هذا التفاوت ناحية مادية حيث نرى فقراً مدقعاً بجانب يسار فاحش ، أو ناحية عقلية ، إذ بينما يغمر السواد الأعظم من السكان جهالة مطبقة تواجهه طبقة على حظ كبير من العلم ومن الدرجات الجامعية . وحتى في الحياة الخاصة فإنها تنتقل من حياة بسيطة ضئيلة راكدة ، إلى حياة نشيطة عنيفة متمادية

في الترف والرفاهية ، ولا يمكن أن تنسق حياة اجتماعية مع وجود هذه الفارقات إذ تتطلب من المصلح الاجتماعي أن يكون في إصلاحه حكماً عادلا يعمل جهده على إنماء ثروة أهل الثراء مع تغذية موارد المعسرين ، وابتكار الدوحات العلمية لخاصة المتعلمين مع إيصال المعارف العامة والضرورية لغير المتعلمين ، والترفيه عن الموسرين المترفين مع إيجاد الوسائل للتخفيف عن المعوزين وأشباه المعوزين .

ومن الغريب أن لهذا التفاوت أثره أيضاً في الإنتاج بأنواعه ، الصناعي والزراعي والتجاري ، ففي مدينة القاهرة نجد منازل النسيج اليدوي التي يشتغل بها العمال على الأنوال في قاعات ضيقة وبأجور ضئيلة وذات الإنتاج البسيط في قيمته وكميته ، تجاور مصانع النسيج الكبيرة التي تحاكي مثيلاتها في مدن أوربا الصناعية ويشرف عليها إخصائيون ، ولا تقل منسوجاتها في الجودة عن المنسوجات الأجنبية .

وإذا اجتزنا بعض شوارع العاصمة لشاهدنا فريقاً يشتغل بصناعة الحدادة ويزاول مهنته في طريقة عتيقة بأدوات تكاد لا تصلح أداة للكسب ولا يتفق أداؤها مع أبسط القواعد الصحية ، بينما يوجد على مقربة منهم مصانع كبيرة بها من آلات البرادة والسابك الشيء الكثير مما يصلح لإعداد أدوات ميكانيكية هامة ، بل منها ما أمكن الاستعانة به في بعض الصناعات الحربية .

أما في الإنتاج التجاري فيكفينا أن نمعن النظر في وسائل النقل ، وأن نقارن بين وابورات شركات الملاحة النيلية التي تمخر عباب النيل وبين العدد الوفير من المراكب الشراعية التي ما زالت تقوم بقسط وافر في النقل النيلي .

أما عن الإنتاج الزراعي فمظهره مقارنة ذلك الفلاح المصري العادي الذي يتبع في الزراعة خطى السلف فيروي أرضه إذا غمرها النيل ، ويحرثها إذا انحسر عنها ، مستعملا سائر الأدوات الزراعية البدائية التي تعاقبت عليها الأجيال .

بينما نجد أن بعض الشركات الزراعية الكبيرة قد خطت خطوات واسعة في استعمال وسائل الري والحرث والزراعة وجمع المحصول بطريقة لا تقل عما يتبع في بعض البلاد الزراعية الراقية .

ومن الإنصاف أن نقرر أن هذا التفاوت بين الأفراد والطبقات ملحوظ في الحياة الاجتماعية عند غيرنا من البلاد الراقية ، ولكنه يمتاز بأنه قائم على مستوى مادي للمعيشة يكفل لأفراد الشعب حياة تكفل لهم الحصول على الضروري وما هو أكثر من الضروري ، ويمتاز أيضاً بأن عامة الشعب تستمتع بقسط وافر من المعارف العامة والثقافة ، تساعد كل طبقة على تفهم الطبقات الأخرى ، وتعمل على تقوية الروابط بين الأفراد وبين المهن وبين الطبقات .

وكذلك الحال في التفاوت الاقتصادي في الإنتاج ، فإنه مشاهد في دول أخرى ، إنما يلاحظ فيها أن الوسائل الحديثة للإنتاج أصبحت الغالبة ، وأخذت الوسائل السابقة في التحول إلى الانقراض .

أما في مصر فتعتبر الوسائل المستحدثة مظهراً عارضاً يخشى عليه من الزوال ، فما زال استخدامها يسير بخطى متئدة جداً ، وما زالت الوسائل القديمة أكثر نشاطاً وانتشاراً ، وما زال لها السبق في أكثر نواحي الإنتاج .

وطبيعي أن لهذه الظاهرة أسباباً عدة ، وأنه قد تعاقبت على وجودها سنين طويلة ، ولكن ربما كان من أهم أسبابها :

أولا — ضعف انتشار التعليم ضعفاً كبيراً ، وبداهة أن ضعف انتشار التعليم يلازمه ضعف في المعلومات والمعارف الضرورية التي تمكن أفراد الشعب من أن يفهموا جميعاً ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو أنفسهم ونحو غيرهم ونحو بلادهم .

ثانيا — انقضاء فترة طويلة على جمهور السكان وهم طبقة الزراع والعمال دون أن يجدوا تشجيعاً ماديا وأدبيا

يهيئهم لحياة اجتماعية حديثة ويحملهم على أن يأخذوا بقسطهم من وسائل الإنتاج المستحدثة .

فظل جمهور الفلاحين والعمال لا يستسيغون التطور الاجتماعي ، واستمسك الفلاحون بالجمود في كل نواحي الحياة ، ذلك الجمود الذي قد نخطئ إذا حسبناه رضا واعتزازا بأحوالهم ، وإنما يدل فقط على أنهم يجهلون ما عداها من ألوان الحياة .

أما العمال فلإقامتهم في المدن وقربهم من طبقة المستنيرين ، قاموا بمحاولات نحو التطور الاجتماعي ، ولكنها محاولات ترجع إلى مجرد التقليد لما وصل إليهم مشوشا من الدول الأخرى ، أو ترجع إلى من يدفعونهم ويلقنونهم أشياء لم تمو معدتهم بعد على هضمها ، وليست لديهم القدرة الكافية على تفهمها .

والعنصر الثاني الذي تمتاز به الحياة الاجتماعية في مصر عدا ما أشرنا إليه من الظواهر البارزة في الشعب المصري هو اشتغال الأكثرية الساحقة من المصريين بالزراعة ؛ ويرجع ذلك إلى أن مصر تعتمد اعتمادا كبيرا على الإنتاج الزراعي ، ويرجع ذلك إلى خصب أرضها وإلى سهولة وسائل الري فيها ، وإلى عوامل نفسية تتصل بطبائع أهلها ومألوف عاداتهم التي ورثوها فتأصلت فيهم بالوراثة ، وتأقلمت بحكم إقامتهم في إقليم زراعي .

وأخص هذه الطبائع ميلهم في كسبهم ومعاشهم إلى الموارد الثابتة مهما ضؤلت ، وانصرافهم عن المجازفات مهما أتت بفوائد مالية كثيرة ، ونظرتهم إلى الماضي دائما نظرة تقديس ، بما كون السلف محاكاة تكاد تكون تامة في وسائل إنتاجه — وقلما يعدون الخطة التي رسمت من قبل ، حقيقة منح بعض المصريين حظاً كبيراً من الابتكار والتجديد وحب المجازفة ، فقاموا بأنفسهم أو بمساعدة بعض الأجانب باتخاذ وسائل جديدة في الانتاج ، سواء في ذلك الانتاج الصناعي أو الزراعي أو التجاري ، ولكن هؤلاء قلة والقلة لا يقاس عليها . وإن دراسة الحياة الاجتماعية لعمال الزراعة ذات أهمية في الوقوف على الحياة الاجتماعية العامة ، ويرجع ذلك إلى ما يأتي :

أولا — عمال الزراعة كغيرهم من السكان أداة فعالة في الانتاج القومي للبلاد ، ولسنا في حاجة إلى إيراد الأرقام للتدليل على نصيبهم في الدخل العام .

ثانياً — والزراعة من حيث إنها عمل ما زال يشتغل بها أكثر المصريين . إذ دلت الاحصائيات على أن من يشتغلون بالزراعة من المصريين وهم المزارعون بالأجرة وصغار المزارعين ومساعدوهم والزارعون مع ذويهم والزارعون في أرض يملكونها والزارعون الذين يشتغلون في أرض يستأجرونها بلغ عددهم ٣٬١٠٠٬٠٤٢ في سنة ١٩٢٧ ، وقد قفز هذا العدد في سنة ١٩٣٧ إلى ٥٬١٥٧٬٥١٢ ؛ وهذا عدد ضخم ولا سيما لو لاحظنا أن عدد جميع أصحاب المهن في مصر بما فيهم عمال الزراعة كان ٥٬٨٤٥٬٦٦٧ في سنة ١٩٢٧ ، وكان ٧٬٤٢٠٬٣٥٥ في سنة ١٩٣٧ ، وأننا لم نضف إلى عدد عمال الزراعة طوائف رعاة الأغنام والفعلة والباعة السريحة وغيرهم مع أن هؤلاء في الغالب مزارعون عاطلون اضطروا إلى عملهم الحالي اضطراراً ولم تنقطع صلتهم بالزراعة بعد بصفة نهائية .

ثالثاً — أن الحالة العادية للمشتغلين بالزراعة ذات تأثير قوي على المشتغلين بالصناعة ، فلا شك أن سوء الأحوال المعيشية في القرى تحملهم على التطلع إلى المدن ، خصوصا وقد أخذت بعض المدن تشتغل بالصناعة على وضع كبير .

وقد حدث مثل هذا التطلع والهجرة في بلاد أخرى مثل انجلترا عند بدء الحركة الصناعية فيها وقبل إدخال الاصلاحات الزراعية التي أعادت الكثيرين ممن هجروا الزراعة إليها ؛ ولهذه الهجرة المحلية خطرها ، إذ أنها تهبط بأجور عمال الصناعة ، وتغرى أصحاب الصناعات على استخدامهم رغم ما في هذا الاستخدام من استهداف لانتاج

جمال الدين الأفغاني

للأستاذ أحمد أمين بك

يعجبني أحياناً طريقة القدماء في ترجمة العظماء ، فيختفي المترجِم ويبرز المترجَم ، ويكتفى بذكر الأحداث التي حدثت للعظيم وتصرفه أمامها ، والكلمات التي فاه بها ، ونحو ذلك ؛ ويترك القارئ يفهم منها ما شاء ، ويستنتج منها ما شاء ، ويقوّم ما شاء ؛ لا يلح شرحه وتفسيره ، ولا يفرض على القارئ فهمه ، ولا يتحكم هو في رسم الصورة التي يراها ؛ وذلك ما فعل الأصفهاني في الأغاني ، وياقوت في معجم الأدباء ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، وغيرهم من مؤرخي العرب .

وقد قرأتُ في هذه الأيام ترجمة للسيد جمال الدين من هذا القبيل ، اكتفى فيها المترجم ... بنقل آراء الأستاذ وأقواله وأحداثه ؛ وجعل ذلك كله يسع الأستاذ كما يشاء القارئ (١) ؛ وقد استوقف نظري بعض أحداث وأقوال أعجبتني ، أرويها كذلك من غير تعليق :

١ — قال له « المخزومي » يوماً : إن بعض الأصدقاء يرغبون في الحصول على ترجمة الأستاذ ، فقال له : « قل لهم : إن العيان لا يحتاج إلى ترجمان ، قل لهم ما قال فلان عني (وفلان هذا عدو من أعدائه) إنه « سرسري » ، أي متشرد أو أفاق ، وأي نفع لمن يذكر أنني وُلدتُ سنة ١٢٥٤ وعُمِّرتُ أكثر من نصف قرن ، واضطررت لترك بلادي ، وأُكرهت على مبارحة الهند ، وأُجبرت على الابتعاد عن مصر ؟ » .

٢ — ولما جمع المخزومي هذه الوقائع استشار الأستاذ في اسمها ، فقال : سمها « خاطرات » ؛ فقال المخزومي : إن بعض الأصدقاء نبهني إلى أن هذه اللفظة غير صحيحة في النفس ، والأقرب للصواب أن تسميها « خطرات » أو « خواطر » ، فقال : سمها « خاطرات » ولا تبال بمن فسد ... لا يعلمون إلا الأجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنشرح لها القلب أو تطرب السمع .

وكتب يوماً كلمة بعنوان « سياسة بقروتية في مملكة فرعونية » ، فاعترض عليه في كلمة بقروتية ، فقال : كيف صلح قولهم « ملكوت » و « جبروت » ولا يصح لي أن أقول « بقروت » ؟ ونظير هذا قوله : لا يصح للسماعي والقياسي أن يمنع أحدهما الآخر ، فإذا جاز بالسماعي « أن ينحرف » جاز بالقياسي « أن يتعوج » .

٣ — ولما جاء مصر أعجبه برنامج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء والمساواة » ، فانضم إليها ، وعُرض عليهم في المحفل يوماً إعانة لأحد الإخوان ، فقال « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل

(١) والكتاب هو (خاطرات جمال الدين) لمحمد باشا المخزومي الذي عاشر الشيخ ولازمه مدة إقامته في استنبول .

يشوبه الجهل وعدم المعرفة .

ويشاهد ذلك عند استعراض أجور العمال ومقارنتها بالنسبة لمن يقومون بأعمال مماثلة ، ولكنهم يختلفون ، فبعضهم من الريف وبعضهم من القاهرة ، ويطرد ذلك بالنسبة للأعمال الفنية ، فإن نهالك عمال الزراعة النازحين إليها يهبط بمستوى الأجور فيها ، هذا بالرغم من أن المبدأ الاقتصادي السليم يوجب مراعاة كفاية العامل عند استخدامه قبل مراعاة أجرته .

ويضطر تبعاً لهذه المزاحمة كثير من عمال الصناعة مع اعتزازهم بفنهم وكفايتهم ومحاولتهم المحافظة على مستوى أجورهم ، إلى التسامح والتساهل فيها .

(يتبع) **ابراهيم المطريقي**

هو صحيح البنية ؟ قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا لإنسان » .

وحضر مرة اجتماعاً فيها ، فقال أحد الخطباء : « إن الماسونية لا دخل لها في السياسة » ؛ فعجب جمال الدين كل العجب من أن الجمعية التي برنامجها « الحرية والإخاء والمساواة » لا ترفع صوتها لرد الحرية إلى مسلوبها ، وانفصل من الجمعية وكوّن محفلاً وحده .

٤ — ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من المال ، عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً . فقال لهم : « أنتم إلى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

٥ — ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة سنة ١٨٩٢ ووصل إليها ، كان في انتظاره الياور السلطاني ، فسأله : أين صناديقك يا حضرة السيد ؟ فقال : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . قال الياور : حسناً ! دلني عليها . فقال السيد : صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) ، وصناديق الثياب هنا (وأشار إلى جبته) .

وقد قال : « كنت أول عهدي أستصحب جبة ثانية وسراويل ، ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية ، فأترك التي عليّ إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها .

٦ — وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً في تسخير جليسه . . . ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام للملك من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيره وسيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ، ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوبه » .

٧ — وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يعمل عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورتبته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم » .

٨ — وعاش جمال الدين عزباً لم يقترن في حياته بامرأة ، وكان كلما شكا له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأي أبي العلاء :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

قال : كلا ، كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ أما أنا فمعرفتي بما تتطلبه المسألة الزوجية من معاني العدل ، وعجزي عن القيام بأمره وخوفي أن آتي عدم العدل أبقاني عزباً » .

فقال له طبيب يهودي كان من خاصته : فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة أحكم منك ، فهي تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونه » .

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال ، فلم لا تقبل عطاءه من الجواري الحسان ؟

قال : أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له — على قدر اجتهادي — أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها ، ولست بوليها لأتحرى لها كفؤها .

ثم قال للرسول : « إذا أصر جلالة السلطان وأحب أن يكرهني على هذا الأمر فلا أظن إلا أنه يجب أن يراني في عداد الخصيان » .

٩ — وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله، وكان كلما ذكره يقول: « صديق الشيخ » ، وكان السيد عبد الله نديم فى آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً : قد أكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعت غيره بقولك صاحبنا ، أو « فلان من معارفنا » . فتبسم السيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديق ؛ ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديق على الضراء ، وأنت صديق على السراء » ، فسكت النديم .

١٠ — كان جمال الدين يهزأ عبداً « داروين » الذى يعنون « بتنازع البقاء » ، ويقول : إن المبدأ هو « تنازع الفناء » ، ويقول : إن البقاء الذى ينبغى أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى ، والمتنازع والمتنازع عليه منه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأولى أن يقال : « تنازع الفناء » .

قيل له : وهل يجمع العالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟

فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة وقصور مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات ، ثم هل غير التفنن فى اختراع المدافع المريعة والمدمرات والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان ، تتبارى فيها تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية ، وما فى مدنيات تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه فى كفة ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وويلاتها ، لكانت كفة العلوم والمدنية والتمدن هى التى تنحط وتغور ، فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلا جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش . فالإنسان فى ذلك أحط من الحيوان .

هل سمعت أن ثمانمائة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وقلبت بينها الأنياب وقتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقفت الأسود صفوفاً وتناهشت لحوم بعضها وسالت دماؤها ؟ فليس ثمة مدنية ولا علم ، ولكن جهل وتوحش .

* * *

ثم رويت للسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها فى مناسباتها .

كان إذا أقسم قال : « وعزة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول بالأوهام — من سفه الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله الجد بالفعل — لا يؤمن بربوبية القوة إلا صريح الضعف — الأكفاء فى العصر لا يكونون عن المال أصدقاء — تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج — من يطلب الملك لغير جريرة فهو الصعلوك — صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس — ألف قول لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً — إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته — بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة — القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى — شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل — الأديب فى الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً — قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام — القوى من الشجر لا يعجل بالثمر — (اللغة) العربية وسّعها البدو فى البرارى والقفار ، وضيّقها الحضر فى المدن والأمصار — العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .

وفى هذا القدر اليوم كفاية .

أحمد أمين

١ - رأى شوبنهاور
فى التاريخ

فى فلسفة شوبنهاور جانب أعتقد أنه لم يلق حظه المناسب من الرعاية والتنويه ، لا من بعض شراح فلسفته وناقديها ، ولا من الكثيرين ممن كتبوا فى فلسفة التاريخ وبحثوا طبيعته ، وحاولوا أن يعرفوا هل التاريخ علم أو فلسفة أو فن أو هو هؤلاء جميعاً ؛ وذلك مع ما لهذا الجانب من جوانب تفكيره من الدلالة على مناشىء فلسفته ، وطرافته ، واتجاه تفكيره ، ونوع تأثيره ؛ وهذا الجانب المهمل هو رأيه فى التاريخ وتقديره لدراسته ، فقد كان أكثر معاصريه من مفكرى الألمان وممثلى فلسفة الرومانتزم ، يحاولون أن يتفهموا حاضرهم عن طريق المنهج التاريخى ، وأن يشدوا أنسجة التاريخ المتشابكة الخطوات ، والتى تلبس أردية الزمان ، ليكشفوا عن المبادئ العضوية التى تتكون منها أسس الحياة الحقيقية ، فحقيقة الحياة المتشابكة المبهمة ترق صفحتها ، ويشف جوهرها ، وتنجلى عنها سحائب الغموض ، ويبدو بناؤها الداخلى وتكوينها الصميم للعين النفاذة والخاطر اللماح الذى راقب نموها وتدرجها فى مراتب الكمال خلال سير التاريخ وعلى توالى أعصاره وتتابع أدواره ؛ وعندهم أن التاريخ هو دعامة البحوث النظرية وقوام الفلسفة ؛ وكان أكبر ممثل هذه الحركة وقطب رحاها هيجل قريع شوبنهاور فى الفلسفة الألمانية ، وخصمه الذى كان على الدوام هدف نقده وزرايته ، وهو يعتبر التاريخ أسمى ضروب المعرفة ، والتاريخ فى عرفه أسمى من العلوم الطبيعية ، لأن العلم الطبيعى يستطيع أن يرينا الدائرة الأبدية التى تتكرر فيها المظاهر ، فى حين أن التاريخ يكشف لنا عن ترقى « المطلق » وتحقيقه فى الزمان ، ومن ثم فإن الدنيا تسفر عن حقيقتها فى التاريخ لا فى العالم الخارجى ؛ وهذا التقدير الرفيع لوظيفة التاريخ كان له تأثير كبير فى تفكير القرن التاسع عشر ومذاهبه ، وكان من أسباب نهوض الدراسة التاريخية الألمانية التى بدأت بالمؤرخ نيبهر والمؤرخ سافينييه ، ووصلت إلى أوجها فى المؤرخين المشهورين فون رانك وموسمن ؛ وقد تأثرت بفلسفة هيجل إلى حد بعيد الفلسفة المثالية الإيطالية الحديثة ، وبندتو كروتشه أكبر ممثليها يذهب إلى أن الفلسفة والتاريخ شىء واحد .

أما شوبنهاور فقد اعتزل هذه الحركة من بادئ أمرها ، وعمل على مقاومتها وتسفيه آراء القائمين بها ، والفيلسوف فى رأيه عبقرى موهوب ، فما حاجته إلى هذه النظارة من الملحوظات التاريخية التى يستعين بها العلماء ، وهو الذى تتكشف لبصيرته الحقائق وتزول عنها الغواشى والحجب ؟ وهذا الذى يسمونه « تقدماً » و « ترقياً » إن هو إلا وهم من الأوهام وضلالة من ضلالات العقول .

ويرى شوبنهاور أننا نستفيد من الشعر ضروباً من المعرفة أصدق وأغزر مما نستفيد من التاريخ ، وأرسطو يقر هذا الرأى .

ويذهب شوبنهاور إلى أن الحقائق فى كل طبقة من طبقات الموجودات وفى حدود كل جنس من الأجناس مما لا يستطاع حصره ، ولا يمكن عده ، لأن عدد الأفراد غير متناه ، وتنوعات فروقها لا تحصى ، وعندما يشرف عليها العقل لأول وهلة يكاد يصيبه الدوار ، ويفقد توازنه ، ومهما بالغ فى التحرى والاستقصاء يتضح له أنه مقضى عليه أن يجهل الكثير ، ثم يتقدم العلم ويتناول تلك الحقائق بالتنظيم والتنسيق ، ويضع متشابهاتها تحت تصورات جنسية ، ثم يقسم الأجناس إلى أنواع ؛ وبذلك يمهد السبيل إلى معرفة العام والخاص ، ويعد الذهن المتقصى بالراحة ، ويوحى إليه الطمأنينة ، ثم تتجمع

سائر العلوم وتتدانى وتقسيم فيما بينها عالم الأشياء الفردية ، وتسمو فوقها جميعاً الفلسفة لأنها أعمها وأوسعها شمولاً ، وهى لذلك أجلها شأناً ، وهى تعلن النتائج التى ذلل لها العلماء العقبات ، وفتحوا موصد الأبواب ؛ ولكن التاريخ يقف وحيداً منفرداً ، ولا ينتظم فى سلك هذه العلوم ، لأنه لا يستطيع أن يفخر بمزية من مزاياها ، وليس فى وسعه أن يدعى خاصة من خصائصها ، وذلك لأنه تنقصه الصفة الجوهرية للعلم ، وهى القدرة على إخضاع الحقائق لنوع من الترتيب والتنسيق ؛ والحقائق فى التاريخ تتجمع وتتجاور ، ولكن لا يمكن إخضاعها لنظام يعين على استنباط القوانين واستخلاص النتائج ، ولذا لا يوجد منهج منظم للتاريخ كما لسائر العلوم ؛ والتاريخ على هذا الاعتبار ضرب من ضروب المعارف العقلية ، ولكنه ليس علماً ، لأننا لا نستطيع أن نصل فيه إلى الخاص عن طريق العام ، بل يلزم أن نتفهم الخاص مباشرة ، ولذا نراه دائماً على أرض التجربة ، فى حين أن العلوم الحقيقية تعلو فوقها وتسيطر على الخاص ، وذلك على أقل تقدير فى داخل حدود معينة ، ويمكن أن يتنبأ فيها بحدوث أشياء لأنها قد حصلت على تصورات شاملة كلية ، وبذلك يحظى الإنسان بنوع من الراحة ، ويطمئن من ناحية ما سيحدث ؛ والعلوم تتحدث إلينا على الدوام عن الأنواع لأن لها من التصورات ما يمكنها من ذلك ، ولكن التاريخ يحدثنا أبداً عن الأفراد ، وهو من أجل ذلك علم أفراد ، وهذا تناقض واضح ؛ ويستتبع ذلك أن العلوم تتحدث دائماً عما سيكون ، والتاريخ على نقيض ذلك ، فهو لا يتحدث إلا عما كان مرة واحدة ولم يتكرر بعدها ؛ ولما كان التاريخ لا يتناول إلا الفردى والمعين الخالص الذى هو بطبيعته لا يمكن أن يحصر ولا أن يستوفى ، فهو إذاً يعرف كل شىء معرفة ناقصة غير مستوفاة ؛ وقد يعترض على ذلك بأن فى التاريخ وضعاً للخاص تحت سيطرة العام ، لأن العصور والحكومات وما إلى ذلك من التغيرات العامة أو الثورات السياسية ، وبالاختصار كل ما هو فى الجداول التاريخية هو العام الذى يخضع له الخاص ، وتسرى عليه أحكامه ؛ ولكن هذا الرأى يرتكز على فهم خاطئ لتصور العام ، لأن هذا العام المشار إليه فى التاريخ هو مجرد شىء ذاتى ، وقد نشأ عمومه من نقص معرفة الأشياء ، والعجز عن إدراك التفصيلات ، ولم ينشأ عن معرفة موضوعية ، أى أن عمومه ليس قائماً على تصور يضم بين أطرافه طائفة من الحقائق ، وأكثر الأشياء عموماً فى التاريخ ، وأوسعها شمولاً ، لا يخرج عن حدود الفردية ، ولا يتسم بغير ميسم الخصوصية ، مثل الحقبة المتطاولة من الزمن أو الحادثة الهامة ؛ وعلاقة الخاص بالعام فى التاريخ هى علاقة الجزء بالكل ، وليست علاقة الحالة من الحالات بالقاعدة المطردة والقانون الثابت ؛ وهذا يناقض المألوف فى العلوم الحقيقية التى تقدم لنا تصورات [illegible] وحقائق فردية ؛ ومن ثم فإن معرفتنا بالعام فى تلك العلوم تفيدنا معلومات أكيدة عن الخاص الذى تطالعنا صورته بعد ذلك ؛ فنحن إذا عرفنا مثلاً قوانين المثلث عامة أمكننا أن نعرف خواص المثلث الذى يرسم بعد ذلك حيالنا ؛ وليس التاريخ كذلك ، فإن العام فيه ليس عاما موضوعياً للتصور ، وإنما هو عام ذاتى نستعين به على المعرفة ، وهو يكتسب صفة العموم كلما حفل نصيبه من السطحية والتفاهة ؛ ويمكننى أن أعرف بوجه عام عن حرب الثلاثين سنة أنها كانت حرباً دينية ثارت فى القرن السابع عشر ، ولكن هذه المعرفة العامة لا تجعلنى قادراً على الإخبار بأى شىء أكثر تحديداً عن سيرها ، ومما يؤكد ذلك ويوضحه أن الخاص فى العلوم الحقيقية الجديرة بهذه التسمية هو الذى نستطيع أن نثق به ونتأكد منه ، لأننا نعرفه بالإدراك المباشر الذى تقوم عليه الحقائق العامة وتتفرع منه ، ولذا قد يتسرب إليها

الخطأ ويغشاها الوهم ؛ ولكن الأمر فى التاريخ على خلاف ذلك ، فالأكثر عموماً فيه هو الأوفر نصيباً من التأكيد ، مثل العصور المختلفة وتوالى الملوك والثورات والحروب ومعاهدات الصلح ، ولكن الحوادث الخاصة وصلاتها وملابساتها عرضة للشك الذى يزداد قوة كلما ألممنا بتفصيلاتها ، وتعمقنا فى الوقوف على أسبابها وأصولها ؛ والتاريخ الخاص أكثر متعة وأقوى جاذبية ، ولكنه فى نفس الوقت أقل استحقاقاً للثقة ، وأبعد عن مجال التأكد والتيقن ، بل هو فى هذه الحالة يقترب من عالم القصص والرواية ؛ ومن الصعب على الإنسان أن يفهم حوادث حياته الخاصة ويستوعب روابطها المتشعبة ، وعلاقاتها المستخفية ، وذلك لصعوبة تبين الدوافع المختلفة التى تعمل تحت تأثير الصدف والأغراض الخفية والبواعث المستدقة ؛ وما دام غرض التاريخ هو الحادثة الفذة ذات الصفة الخاصة ، فإنه من أجل ذلك نقيض الفلسفة التى تحاول أن تشرف على الأشياء من أعم وجوهها شمولاً ، وغرضها هو العام الذى يظل على الدوام واحداً وكاملاً فى كل خاص ؛ ولذا فإن الفلسفة ترى فى الخاص الناحية العامة ، وتعتبر الفرق فى المظاهر فرقاً غير جوهرى ؛ والتاريخ يعلمنا أنه فى زمن من الأزمان قد وقع شىء ما ، فى حين أن الفلسفة تحاول أن تعيننا على أن نبصر أنه فى كل الأزمنة كان نفس الشىء ، ويكون وسيكون . والحقيقة أن جوهر الحياة الإنسانية مثل الطبيعة بوجه عام موجود فى كل لحظة تاماً غير منقوص ، والإحاطة به واستكناه سره يستلزم التعمق فى البحث وشدة الغوص . والتاريخ يحاول أن يستعيض عن العمق بالطول والاتساع ، وعنده أن كل حاضر إنما هو جزء يتمه الماضى غير المحدود ويضاف إليه المستقبل غير المحدود كذلك ؛ ويستبين لنا من خلال ذلك الفرق بين العقل الفلسفى والعقل التاريخى : فالأول يحاول النفوذ إلى الأعماق ، والثانى يحاول التنقل بين عقود الماضى وسلاسل أحداثه ، والتاريخ يرينا من كل النواحى نفس الشىء فى أزياء مختلفة ، والذى لا يدركه فى صورة من الصور قل أن يهتدى إلى حقيقته بعد عرض مختلف الصور ؛ وصحائف تواريخ الأمم لا تختلف إلا فى الأسماء والعناوين ، ومحتوياتها الجوهرية واحدة فى كل زمان ومكان . والفن مادته « الفكرة » ، والعلم مادته « التصور » ، ومادة التاريخ هى الحوادث المتغيرة القلب ، ولذا يبدو أنه غير جدير بأن يبذل فيه مجهود جدى . وربما كان من الخير للعقل الإنسانى أن يختار ميداناً لجهاده ما هو أدوم وأبقى . أما محاولته فهم تاريخ العالم من حيث هو كل مستوفى الأجزاء له غاية مقسومة ، وخطة مدبرة ، فإنها محاولة غير مجدية . والواقع أن حياة الفرد وحدها هى الحياة التى لها وحدة واتصال ، ولها معنى ودلالة ، وحوادث حياتنا الداخلية حوادث حقيقية ، لأنها منبعثة من الإرادة ، والإرادة هى الشىء فى نفسه الذى لا حقيقة لغيره ، وفى كل عالم « أصغر » ينطوى العالم « الأكبر » ، وما يرويه لنا التاريخ هو فى الواقع حلم الإنسانية الثقيل المختلط المشوش ، ويجمل بالهيجليين الذين يعتبرون فلسفة التاريخ أكبر غاية لدراسة التاريخ أن يرجعوا إلى أفلاطون الذى لا يمل ترديد أن الفلسفة مجالها ما هو ثابت وباق وغير قابل للتجديد ؛ وفلسفة التاريخ الحقة لا توجه التفاتها إلى ما هو فى صيرورة دائمة وتعتبره طبيعة الأشياء ، وإنما تحصر التفاتها فى الكائن الذى لا يتغير ، وترينا أن وراء الاستحالات التى لا تنتهى تكمن الطبيعة الإنسانية التى لا تتغير ، والتى يشبه سلوكها اليوم سلوكها بالأمس وسلوكها فى المستقبل ، فهى هى فى مختلف الظروف وشتى الأزياء ؛ ومن قرأ هيرودوت بتبصر وإمعان فكأنه قد قرأ تاريخ الإنسانية جميعه .

علی أدهم

العقـــار

أيقال عُقّار أم عَقّار ؟

تمهيد :

وقفتُ على نقد لحضرة الأستاذ الشهير ، والأمير الكبير ، مصطفى الشهابي ، في مجلة المجمع العلمي العربي في سنتها ١٧ : ٨٩ ، بعنوان : « كتاب شرح أسماء العَقّار » ، وضبطت فيه الكلمة الأخيرة ضبط قلم بفتح وشدّ "كشدّاد" ! فتعجبت من هذا التقييد ، وظننته من خطإ الطبع . ولما أتممت مطالعة البحث ، تحققت أن هذا الشكل كان مقصوداً ، دون الشائع على الألسن ، الذي هو بضمّ فتشديد مفتوح ، أي كرُمّان — ودونك عبارة الناقد الواردة في ص ٩١ من المجلة المذكورة :

« استنكر [الدكتور مكس مايرهوف] لفظة العقار مفتوحة العين ، في معظم المعاجم العربية (ص ٩٢ [illegible] القديمة) ، وأوجب أن تكون بالضم ، ولا نرى وجهاً لاستنكاره ، لأن العرب عند ما عربوا الألفاظ الأعجمية ، أيا كانت أصولها ، لم يتقيدوا بعدم مسها ، بل غيروا بعض حركاتها ، حتى بعض أحرفها . والأمثلة على ذلك لا تعدّ ولا تحصى ... » إلى آخر ما هناك من الكلام .

فقلنا في نفسنا : إن كلاً من الأديبين مخطئٌ في رأيه ؛ فالدكتور عمّم إنكاره العَقّار بالفتح . والأمير حصر كل قوله في أن العرب لم تنطق إلا بالفتح ، ولم تعرف الضم . ولهذا غيّر عنوان الكتاب الذي ذكره الدكتور مايرهوف بالضم الواضح وبحرف ضخم ، على ما ورد في الأصل المنقول عنه ، وما كان يحسن بالأمير تصحيحُه في الأول ، بل ذكرُه كما هو في الأصل ، ثم التعرض لتصحيحه في نقده أو مقاله .

والآن نحاول هنا إظهار منزلة كلّ من هذين الرأيين ، مبينين أن الفصحاءَ من السلف الصالح نطقوا بالضمّ ، وهو الرأي الأغلبُ الأسدُّ ، ونطق بعضهم بالفتح ، وهو دون الأول مكانة وفصاحة . ونحن ننقل النصوص على ما جاءت في دواوينهم .

٢ — العُقّار ، بالضم

أول معجم دوّن العقار بالضم ، بزنة رُمّان ، كتاب (العَيْن) ، وهو أيضاً أول ديوان لغويّ ألف في لغتنا الشريفة ؛ وجميع أرباب كتب متون اللغة الذين جاءوا بعده ، ووضعوا تصانيفهم ، عالة عليه . وهذا ما يبدو لكل ذي عينين ، إذا ما عارض نصوصهم بنصوص الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار الخراساني ، المتوفى في نحو أواخر المائة الثانية للهجرة ، فإن الذين أتوا بعده نقلوا عبارته نقلاً حرفياً ، وبعض الأحيان مسخوها مسخاً وشوهوها ، من غير [illegible] بسلّتهم . فقد قال الليث في تركيب (ع ق ر) : « العقاقير : أصول الأدوية واحدها عقار ، كزُنّار » انتهى .

وفي «مقدمة الأدب» للزمخشري ، وهو ديوان لغة ، ألفاظه عربية مشروحة بالفارسية ، وهو مطبوع في [illegible] ، في ص ٥٧ ، س ٢٣ : « وعُقّار — وضبطت مرتين ضبط قلم ، مرة في النص ومرة في الفهرس ، وزان رُمّان ، آميزها دارو . خاشاك دارو . العُقّار ، أصول الأدوية ، والجمع عقاقير » انتهى .

وفي ترويح الأرواح ، في تهذيب الصحاح : «والعقاقير : أصول الأدوية . واحدها عُقّار » (وضبطت ضبط قلم ، بضم الأول وتشديد الثاني المفتوح) .

وفي صراح الصحاح (وهو معجم عربي تركي : «عقاقير : داروها . واحدها عُقّار» ، (وضبطت ضبط قلم كزُنّار) .

وفي مختار الصحاح المخطوط ، والمحفوظ في خزانتنا ، (ونسخته بديعة متقنة الخطّ والضبط ، قديمة نفيسة) ، «العقاقير : أصول الأدوية ، واحدها عُقّار ، بوزن خُطّاف» انتهى .

وفي النسخة المطبوعة في مصر ، وهي كثيرة الأغلاط

والأوهام : «أصول الأدوية . واحدها عَقّار ، بوزن عَطّار» انتهى . ونظن أن هنا خطأ طبع والصواب كخُطّاف .

وفي الصحاح المخطوط المصون في خزانتنا : «والعقاقير : أصـول الأدوية ، واحدها عُقّار» وقيدت تقييد قلم كرُنّار . ولم تضبط في النسخة المطبوعة في مصر ، وهي كمختار الصحاح كثيرة الأوهام والعُجَر ، وليس في آخر الديوان تصحيحات لما ورد في المتن من المساوى" .

وفي الصحاح المنقول إلى التركية ، بعناية العلامة اللغوي محمد بن مصطفى الواني ، وكان بيده أحسن نسخة مضبوطة ، والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في قسطنطينية ، سنة ١١٤١ : «العقار ، عينك ضمّى ، وقافك تشديدله ، عقاقيرك مفردى» (في ص٤٣٧) — وهذا كلام يدل على أن نص الصحاح كان في جميع النسخ الخطية القديمة بالضم فصحفه بعضهم ، أو تصرّف فيه تصرفاً ما كان يحسن به أن يأتيه .

وفي بحر الجواهر — وهو معجم طبيّ ، لصاحبه محمد بن يوسف الطبيب الهروي المتوفى سنة ٩٣٨ للهجرة ، والديوان مطبوع في الهند وإيران — ما نصّه : «العقاقير : اسم يقع على جميع الأدوية . واحدها عُقّار ، كرُنّار . وقيل : العقار : كل نبت ينبت ممّا فيه شفاء» انتهى .

وفي ديوان الأدب للفارابي خال الجوهري ، في باب وزن فُعّال ، المضموم الأول والمشدد الثاني : «والعقار أصول الأدوية ، والجمع عقاقير» انتهى .

ونقف عند هذا الحدّ من ذكر الشواهد ، وإلاّ فالموضوع بحر لا ساحل له ولا قعر ، بل لا ينضب ماؤه ، فضلاً عن أننا نتعب القارئ على غير جدوى ، لأن أصل هذه النصوص كلام الليث ، وهو أقدمها وأفصحها وأصحها .

(بغداد) (شبع) **الأب أنستاس ماري الكرملي**
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كنا ثلاثة أيتام...

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبّل زوجته ، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً يجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء . وجاء يومه المرجوّ وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة من الله . . .

فسمّاها نعمات .

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت . . وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته ، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى بنته الثانية عطيات .

« نعمات » و « عطيات » ، لم تكن أسماؤهما إلا تلميح إلى الرضا عن اضطرار ، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً . حرّك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شُعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرّر ابتهاله وتذلله . فاستجيب فى يوم دعاؤه . واستقر فى بطن الأم سرّ الصبى الموعود . حينئذ مات أبى ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته . قد أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده ، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود ، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدتُ يتيما . ومع ذلك لست بغريب عن أبى . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار ، أراه يبتسم لى ويكاد يناديني . . .

***

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمى ، كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت علىّ . سرت وحيداً منفردا خلف النعش ، أما شقيقتاى ، نعمات وعطيات ، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون . فى تلك اللحظة استفقت ، وأدركت أننى أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان ، نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتى ، ليس لهما غيرى . قوّمت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء ، والوصية بالصبر والرجولة .

***

ثم مرت الأيام ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ، وإذا بى فى صحبة شقيقتىّ من أهنأ الناس . ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره وبطره ، نضار طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تخنقه طفولة هامجة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدّم الصبى وحجزت البنتان فى الدار ، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى القضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما تمتت أنثى ، جسما وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة لم يترك لى صفاؤها مطمعا .. فمن مثلى من الرجال تحوطه فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص ؟ لا تقل ملابسي هنداما ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالنكد والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . كانت نفسى قانعة وجسمى سعيدا . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عمى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزانا . فى يدها

مصروف البيت وتدبير خزينته . وبقيت عطيات « دلوعتنا القنوية » التى من أجلها نحرص — فى خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضا فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن نعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . فى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأم القرد تفلّى رأسه وتناغيه . . يجاذبنا نغمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخليّة . لو تُركنا لأنفسنا لعشنا سعداء . فى هناء يكمل بعضنا بعضا . ولكن كيف يأتى ذلك وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير وتطوّع لعمل الخير والتحريض عليه ! ! بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! » ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع فى دارك القديمة الحقيرة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها » ؟

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتىّ على غفلة منهما وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتيهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبىء قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد الثور ونزق الجدى . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى . فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسدا نيئا قبيحاً عاريا قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب . . . رسمت لنفسى برنامجا وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتىّ . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار بين مجرة ، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفى موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالاً . سأعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقيها فى طريقه بيدى . هذا صيد حلال . وأى شىء أعظم ثوابا عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إلىّ ؟

بعت بعض الحلىّ ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحُق — ولكنها غالية علىّ ! — فى جاردن سيتى ، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يادرب الحجر ! لقد ألفى الرق فأعتقنا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعا . وداعا . فنحن فى دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء ! تسألينا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع . . .

ولما دخلت العمارة ، وقام لنا بواب بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ، ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول : « هنا الأنتريه ، وهنا الأوفيس » اطمأن قلبى ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

***

عشنا غرباء زمنا ، ثم بدأنا نألف الحىّ وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح

فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجا بدوره . واحتوانا المصعد سويا . . . لا أدرى لماذا اطمأن قلبى إليه . ابتسامة منى ، وكنت أنا البادئ ، وابتسامة منه ، أوصلت الحديث بيننا ، هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتى — يقبل بسهولة . جاء وزوجته سيدة نَصَف ، حنَت على أختىّ حنو الأم الرءوم ، دعتنا لشرب الشاى عندهم ، وقالت وهى تنصرف :

— عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الاسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء ، وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة . فلم أجئ هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال » .

وذهبت فى الموعد المضروب وأنا منقبض الصدر . . . وجاءت سنية ! أيها الناس ! لا تبخلوا علىّ بكرمكم وطيبتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى ، ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أخذتها وأسارقها النظر ، وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس . . . ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته . وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد حليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . ثوب ، كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والافصاح ، وحناء تغنيك إناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خُدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله ، فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فم متهم وعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً ، وما وجهت لى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت — وأنا أجرّ رجلىّ جراً — كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهى تندس وتنقب . . شعرت أنى عُرّيت ، وقُلّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت ، قيست قامتى ، وخُبِرت ، ووُزِنتُ وكُيِّلتُ — نُقرِت وعُضضت بالأسنان ورُنِّت على الأرض . . حُركت أوتار روحى واستمع لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعت فى المور مخطوطه ، وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة والشفاه مستفهمة . ثم أصدرت حكما لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتى .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إنى تعبت حقاً ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرّنى أنها تناولتنى بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت وأنا لا أزال ألوك فى فمى لذة مذاقها . . ولما دخلت شقتنا ، حانت منى التفاتة إلى أختىّ فقلت فى نفسى — والأسى يملأها — ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويختفى الجورب السميك الركبة ، لتبدوا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما وإلا كان فشل برنامجى المرسوم محققا .

ولكنى فى غدٍ نسيتُ كلّ شىء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوّغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق . بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألأنهم رأوا العابى يسيل وأنا أحدق فى ابنتهم خلسة قرئوا الحال وأرادوا تجنبى التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدّى زاد هياجى ، فإذا بى — وأنا المعروف بإرانى وأدبى — أفقد كل سيطرة على نفسى ، ورأيتنى لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا منى . تصديت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائلى . تتبعتها كظلّها . كل هذا وهى لا تتكرم علىّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أنى لا أدرى كم من الزمن مرّ علىّ وأنا فى هذه الحالة ، قد يكون أسبوعاً ، وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعى وأحسست أن العذاب [illegible] لقصفنى الألم ودمّر قلبى وقضى علىّ . هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من ذراعها . [illegible] فيها رغبة العيش والأمل . وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك [illegible] لى عمل فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت . . . . .

زرت معها معالم القاهرة فكأنى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً . كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً . . من زحف منهم أو طار ، أو دبّ على أربع . .

قالت لى ذات يوم :

— ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير ، ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى . .

ولما رأتنى مطرق الرأس غماً ، أضافت تقول :

— ولكن ماما فى صفى . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نفقات ومعطيات الاقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالوا لى إنى ساعة « كَتْب الكتاب » كنت شارد اللب . ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة . ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أنى — ولا أدرى كيف — انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى تنطبق علىّ ، فى المثل القائل :

« راح يصطاد . اصطادوه . . »

يحيى حقى

ديوان الشبيبى

قامت جمعية الرابطة العلمية الأدبية فى النجف بنشر ديوان الشبيبى . وهو نفثات من شعر حضرة صاحب المعالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى وزير معارف العراق ورئيس مجلس شيوخه السابق . وقد طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعاً متقناً مضبوطاً بالشكل الكامل على ورق متين جيد ومجلداً تجليداً فخماً . ويقع فى نحو مائتى صفحة . ويطلب من مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكتبات الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد .

٢ - الشعراء النقاد

عرضنا في المقال الأول جزءا من دفاع الشاعر « وردسورث » عن مذهبه في اختيار الحياة الشعبية المحتشمة موضوعا لشعره ، واللغة الحقيقية التي يستعملها الناس في دأبهم اليومي قاموسا لقصائده . ونعرض اليوم بقية هذا الدفاع حيث يتناول صاحبنا التعريف بالشعر وطبيعته ، والشاعر وخصائصه ، ويوازن بين المنظوم والمنثور من حيث اللغة وطرائق التعبير .

يحدثنا الشاعر أنه لم يحاول — إلا قليلا — تجسيد الأفكار المعنوية المجردة وتشخيصها ، فقد كان غرضه أن يقلد جهد استطاعته وأن يستعمل لغة الناس . والتجسيد (أو التشخيص) لا يؤلف جزءا طبيعيا أو منظما من تلك اللغة . على أنه قد سمح لنفسه أحيانا باستعمال هذه الأفكار المعنوية حيث كانت ضربا من التعبير أوحى به الانفعال الوجداني إيحاء طبيعيا . ولكنه رفض كل الرفض أن يتخذ منها حيلة آلية من حيل الأسلوب ، أو لغة رمزية خاصة مما يظنه جماعة الناظمين وقفا عليهم . لقد حرص على أن يدع القارئ في صحبة اللحم والدم ، وأن يجعل ذلك طريقه إلى إطرافه وإمتاعه . وربما سلك الآخرون منهجا غير هذا ما هو بمجادلهم فيه ، فلكل طريقته ، ولكنه يفضل منزعه الخاص . ولن يجد القارئ في قصائده إلا قليلا مما يسمى القاموس الشعري ؛ فقد بذل شاعرنا من الجهد في تحاشيه ما يبذل الآخرون في تدبيجه . وهذه خطة عمد إليها لسببين : الأول أن يقرب ما استطاع من لغة الناس ، والثاني أن يحقق اللذة التي أخذ على عاتقه إيصالها إلى أذهان الآخرين ؛ وهي لذة تختلف كل الاختلاف مما يظنه بعضهم الهدف المناسب للشعر .

ومن أطرف ما يسجله « وردسورث » من نتائج التأمل الباطني وصفه طريقته في النظم إذ يقول :[1] كانت خطتي أن أنظر طويلا إلى الشيء أريد النظم فيه ، وأن أستوحيه هزة من الأحاسيس القوية ، وأن أطيل التفكير العميق فيما علق بنفسي منه . حتى أستعيد الذكريات التي كانت لي معه ، ثم أدع الفرصة بعد ذلك لمشاعري تنساب فيضاً اختياريا . ولذلك لن يجد القارئ في قصائدي كثيراً من زور الوصف وباطله ، وسيجد اللغة التي استعملتها مناسبة للأفكار حسب أهميتها . ولعل من بعض مزايا هذه الخطة أنها صديقة للخاصية التي لا بد من تحققها في الشعر الجيد وهي « النظر السليم » . ولكنها بالضرورة قد باعدت بيني وبين جزء كبير من صور الكلام وتعابيره مما يحسب ميراثا مشتركا بين الشعراء .

ويعود « وردسورث » في مواطن أخرى من كتاباته إلى الإفاضة في شرح هذه التجربة النفسية شرحاً يبني عليه تعريفه المشهور للشعر . فالشعر — عنده — هو الفيض الاختياري للأحاسيس القوية وهو ينبع من الانفعال الذي يستعيده الشاعر في هدوء[2] ، إذ يطيل الروية فيما خلف عنده الموضوع من انفعال ، حتى يتجدد التأثر به في نفسه ويختفي الهدوء تدريجا ، وينشأ في العقل انفعال مشابه للأول

(١) من الطريف والمفيد معا أن يحدثنا شعراؤنا المعاصرون أحيانا بتجاربهم وما يمرون في أنفسهم أثناء لحظات الخلق الشعري . وحبذا تفعل (الثقافة) لو وجهت إليهم الاستفتاء التالي (مثلا) وطلبت منهم الاجابة عليه ، ونشرت (بعد استئذانهم) خلاصة لهذه الاجابات :

ا — كيف بدأت حياتك الشعرية ؟ ومن هو مثالك الذي تحتذيه من الشعراء ؟

ب — ما أهم الموضوعات التي تثير قريحتك الشعرية ؟

حـ — ما طريقتك في نظم القصيد ؟ وما الجو الذي يغمرك أثناءه ؟

د — هل لديك تعريف للشعر ترتضيه ؟ وما الذي ينبغي في نظرك أن يكون هدف الشاعر ؟

(٢) "Poetry is the spontaneous overflow of powerful feelings : it takes its origin from emotion recollected in tranquillity" .

أو قريب منه ، وهنا يبدأ التأليف الشعرى الناجح ، ويستمر فى هذا الجو مصحوباً بحالة من الغبطة العقلية . وعلى الشاعر أن يقلد الطبيعة فى هـذا ، وأن ينقل الشاعر إلى القارئ حية سليمة ، محوطة بهالة من اللذة والإمتاع ، وأن يجعل من الوزن والقافية عاملين جديدين يضيفان ثروة إلى النشوة العقلية ، ويخلعان على لغة الناس رواء موسيقيا ، ويلبسان العادى المألوف ثوب الجديد الطريف .

***

وبعد فهل فى طبيعة الأشياء أن تختلف لغة الشعر من لغة النثر ؟ ذلك سؤال لا يتردد شاعرنا الناقد فى أن يجيب عليه بالنفى القاطع ، وأن ينصح للقارئ ألا يحذو حذو أولئك النقاد الذين يظفرون بالبيت أو البيتين فى قصيدة ما (يتشابهان والنثر من حيث اللغة رغم انطباقهما على القوانين العروضية الدقيقة) فيأخذهم من نشوة الفرح ما يأخذ الباحث وفق إلى كشف جديد ، وتفتر شفتاه عن ابتسامة السخرية بذلك الشاعر الجاهل وصواقفه ؟!

إن الجزء الأعظم من لغة أى قصيدة جيدة – فى نظر «وردسورث» – ألا يختلف من لغة النثر الأدبى الجيد إلا من حيث الوزن . ليس هذا فحسب : بل أنت فى الواقع واجد لغة معظم الأجزاء الطريفة من أحسن القصائد هى بعينها لغة النثر إذا كان التأليف جيدا . ومن السهل البرهنة على صدق هذا بالرجوع إلى الآثار الشعرية المشهورة حتى شعر « ملتون » . وهنا يسوق المؤلف مثلا من شعر « جراى » الذى كان معروفاً بتدقيقه فى لغة الشعر ، وضرورة التفرقة بينها وبين لغة النثر . ويحلل هذا المثل ، ثم يلاحظ أن خير أبياته على الإطلاق ما قربت لغته من لغة المنثور . ثم يخلص من كل ذلك إلى أنه ليس هنـاك – ولا ينبغى أن يكون – أى فارق جوهرى بين لغة النثر ولغة التأليف المنظوم . يقول : « إننا مغرمون بتتبع أوجه الشبه بين الشعر والتصوير ، ونسميهما – لهذا – أختين . فأنى لنا بأنواع من الصلات الدقيقة تكيف ما بين الكتابتين النثرية والنظمية من روابط وقرابات وثيقة . إنهما تشكلان بنفس الأجهزة وإليها : إن مادتهما التى يصنع منها جسماهما واحدة ، وإن أهواءهما متقاربة ، بل تكاد تكون متحدة لا تفترق حتى فى الدرجة . إن الشعر لا يذرف دموعا كدموع الملائكة ، ولكن دموعاً طبيعية إنسانية ، وإنه لا يستطيع أن يُدِل بعصارة أثيرية مقدسة تميز ينابيعه من ينابيع النثر ، فإن الدم الإنسانى يجرى فى عروقهما معا » .

ويكفى فى نظر « ورد سورث » للتفرقة بين الشعر والمنطق اليومى الخشن المبتذل أن تختار لغته من بين اللغة التى يتكلمها الناس اختياراً قائما على الذوق والإحساس ، وأن يضاف إلى هذا الاختيار طرافة الوزن[1] وطلاوته – وهذا كل ما يتطلبه العقل السليم . ولا يشك «وردسورث» فى أن الشاعر إذا أحسن اختيار موضعه فإن الفرصة وحسنا بمنطق النفس وأحوالها ، ستلهمه ضروباً من التعبير يقوم بعضها على الفن البلاغى من مجاز واستعارة قياماً طبيعيا لا تكلف فيه . ولو أن شاعراً حاول أن يضيف من عنده تعابير وصوراً لا تثيرها الأحوال الطبيعية التى يتصدى لوصفها لجاء شعره نابياً عن الجودة فارغاً من التأثير .

ومن الضرورى لفهم فكرة وردسورث أن ننتبه هنا إلى ما قاله فى حاشية صغيرة من أنه يجرى على غير رغبته إذ يتبع ما جرت به العادة من استعمال «شعر» مرادفة «النظم» ومقابلة فى القسمة لكلمة « نثر » ، وفى رأيه أن هذا الاستعمال قد أدخل فى النقد الأدبى ما لا حد له من الفوضى .

وخير منه عنده ذلك الاستعمال الفلسفى الذى يجعل الشعر مقابلاً للعلم أو الكتابة التى يقصد فيها إلى تقرير الحقائق (Matter of fact) . فالكلام عنده لا ينقسم إلى

(١) من أضعف النقط فى نظرية وردسورث كلامه من الوزن واعتباره إياه شيئا تمكن إضافته على الكلام من الخارج . وقد رد عليه صاحبه « كولردج » فى هذا رداً مقنعاً .

شعر ونثر ، وإنما ينبغى أن ينقسم إلى شعر وعلم ، ومن الشعر ما هو منظوم وما هو منثور ؛ وللوزن الموسيقى فى النظم لذة طبيعية لا يجحدها إلا مكابر ؛ ولو وصفت العواطف والعادات والصفات وصفاً جيداً مرة فى النثر ومرة فى النظم لقرئ النظم مائة مرة ، حيث لا يقرأ النثر إلا مرة واحدة .

* * *

إن ما تقدم من الملاحظات لا يفى بحاجة «وردسورث» ، فهو حريص على أن ينقل إلى جمهور الناس فكرة كاملة عن رأيه فى الشعر ، وأن يحملهم على قبول هذه الفكرة عن عقيدة واطمئنان . وهو مقتنع أن قبول فكرته ، وتعود الاستمتاع بالشعر الجديد ستكون لها نتائج بعيدة المدى فى النقد الأدبى ، تتغير بها وجهة نظر الناس فى موقفهم من الشعراء قدامى ومحدثين ، ولما يصدر عنهم من ثناء ولوم . فإن الذوق الدقيق فى الشعر — بل فى جميع الفنون — موهبة مكتسبة لا تتيح إلا [illegible] نماذج الأدب وطول التفكير فيها [illegible] من وقته فى مصاحبة الشعر الجيد ، [illegible] عليه حجة خاطئة .

لهذا طرح ناقدنا المسألة من أساسها على بساط البحث ، وسأل نفسه : ما الذى تدل عليه كلمة شاعر ؟ وما هى خصائص الشاعر ؟ ومن يخاطب ؟ وما اللغة التى ينتظرها الناس منه ؟

الشاعر إنسان يتكلم إلى الناس ؛ إنسان قد وهب مقداراً أوفر من الحس ، والحماسة ، والحنان ، والمعرفة بالطبيعة الإنسانية ، ووهب نفساً أوسع من غيره من الناس أفقاً ؛ إنسان مغتبط بمشاعره ونزعاته وبما تضمنت روحه من أسرار الحياة ، يلذ أن يفكر فيما فى الوجود من مشاعر ونزعات مشابهة لما عنده ، وأن يخلق هذه خلقاً إذا لم يجدها . وعنده إلى جانب ذلك استعداد لأن يتأثر بالأشياء الغائبة كأنها حاضرة ، ولأن يفطر فى نفسه نوازع قد لا تشابه ما تحدثه الحوادث الحقيقية . لهذا كله كسب استعداداً وقدرة أكبر على التعبير عما يفكر ويحس ، ولا سيما عن المشاعر والأفكار التى تنبعث فيه بلا مؤثرات خارجية مباشرة .

على أنه مهما يكن نصيب الشاعر من هذه الملكة كبيراً فليس هناك من شك فى أن اللغة التى توحيها إليه لا يمكن إلا أن تكون فى الغالب أقل فى حيويتها وصدقها من اللغة التى يتكلمها الناس فى حياتهم الحقيقية تحت تأثير ضغط مشاعرهم . ومن الواضح أنه ما دامت المهمة الأساسية للشاعر تقليد المشاعر ووصفها ، فإن عمله هذا — إلى درجة ما — آلى إذا قيس بالأعمال والآلام الحقيقية الواقعة . لهذا يجتهد الشاعر أن يجعل أحاسيسه [illegible] من أولئك الأشخاص الذين يصفهم ؛ لا بل يحاول أن يخيل إلى نفسه أن مشاعره ومشاعر أولئك شىء واحد . وقد يقول قائل : إذا كان من المسلم به أن الشاعر لا يستطيع أن يجىء فى كل المناسبات بلغة تناسب الأحوال [illegible] اللغة الحقيقية ، فمن المستحسن — إذاً — أن يعتبر نفسه فى تلك الأحوال مترجماً ، والترجم لا يتردد فى أن يستبدل بما لا يستطيع نواحى أخرى من الجودة يستطيعها حتى يعوض عن ناحية النقص . ولكن هذه — فى نظر «وردسورث» — لغة العجز والكسل ، لغة من لا يفهمون ما يقولون ، لغة من يعتبرون الشعر مجرد متعة ولذة عاجزة .

يقول أرسطو : «إن الشعر أكثر أنواع الكتابة فلسفة» . ويوافقه «وردسورث» على هذا معتبراً موضوع الشعر الحقيقة — لا الحقيقة الفردية أو المحلية — ولكن الحقيقة العامة العاملة . إن الشعر هو صورة الإنسان والطبيعة . والقيد الوحيد الذى يعمل تحته الشاعر هو أن يتيح لذة عاجلة لكائن إنسانى يسمعه ، لا بصفة كونه قانونياً أو طبيباً أو بحاراً أو عالم طبيعة أو فلسفة ، ولكن

بصفة كونه إنسانا . وليس هذا القيد عيبا أو مهانة فى حق الشاعر بل على العكس ، هو اعتراف بجمال الوجود ، وهو عمل غير شاق على من ينظر إلى الدنيا بعين الحب ، وهو احترام تؤديه لخاصية الفطرة فى الإنسان — وهى اللذة . فالمرء مفطور على أن تقوم حياته على أساس اللذة ، بما يعرف ويحس ويعيش ويتحرك ويشارك غيره فى وجدانه ، ويتأمل الحقائق العامة .

هنا تتجه نظرية «وردسورث» اتجاها فلسفيا سيكلوجيا قائما على مبدأ اللذة ، يصل به إلى أن شعور الشاعر ينشأ فى جو من اللذة ، وهدفه هو عرض الحقيقة عرضا يورث اللذة — سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . ومعرفة العالم والكيمياوى وغيرهما لذيذة . ولكن معرفة الشاعر تنفذ إلينا كجزء ضرورى من وجودنا ومن ميراثنا الطبيعى الذى لا يمكن فصله منا ... أن معرفة العالم معرفة فردية شخصية تصل إلينا ... يطلب الحقيقة من بعيد ، ويحبها و... ولكن الشاعر يغنى أغنيته فيطرب ويطرب معه الناس جميعا . إن الشعر هو جوهر المعرفة وروحها اللطيف ، وإن الشاعر هو صخرة الدفاع عن الطبيعة الإنسانية ، يحمل معه أينما سار تعاطفا وحبا . وعلى الرغم من فروق الأرض والجو ، ومن فروق اللغة والعوائد ، والقوانين والتقاليد ، وعلى الرغم من الأشياء التى تبلى وتذهب من العقل فى سكون ، فإن الشاعر يربط المملكة الإنسانية كلها برباط من الوجدان والمعرفة ، وهو يجد موضوعاته فى كل مكان ويجول حيثما وجد جوا من الإحساس يطير فيه بجناحيه . وإذا كانت جهود رجال العلم ستخلق تطورا جديدا — مباشراً أو غير مباشر — فى ظروفنا وفى التأثرات التى تصل إلينا فإن الشاعر سوف لا يتوانى عن تتبع هذه التطورات ، وسيكون دائما مستعدا لحمل الإحساس إلى موضوعات العلم نفسه ، فكل ما يكشفه الكيمياوى وعالم النبات وعالم المعادن ، سيكون موضوعات مناسبة لفن الشاعر .

ملخص ما قيل — إذاً — هو أن الشاعر إنما يتميز عن بقية الناس بسرعة تفكيره ، وإحساسه بلا تنبيه عاجل مباشر ، وبقدرة أكبر على التعبير عن الأفكار والأحاسيس . هذه الوجدانات والأفكار هى الوجدانات والأفكار العامة عند الناس ، وهى لا شك تتصل بعواطفنا الروحية ، وحسوسنا الحيوانية ، وبما يسببها ويثيرها . تتصل بعمليات العناصر وعظاهر الوجود المنظور ، بالعاصفة وشعاع الشمس ، بتطورات الفصول ، بالحرارة والبرودة ، بفقد الأصدقاء والأحباب ، بالأذى والعتب والرجاء والخوف والحزن ... الجميل . هذه وما شابهها هى الموضوعات والأحاسيس التى يصفها الشاعر ، وهى بعينها أحاسيس بقية الناس ... . إن الشاعر يفكر ويحس ... الإنسانية ؛ فكيف تختلف لغته — إذاً — ... بقية الناس الذين يحسون ويشاهدون فى قوة ووضوح ! إن الشعراء لا يكتبون للشعراء فحسب ، ولكن للناس . وإن الشعر هو أول المعرفة الإنسانية ونهايتها . إنه خالد خلود قلب الإنسان .

محمد خلف الله

حكمت محكمة مديرية جرجا العسكرية فى الجنحة ٦١ عسكرية طما سنة ١٩٤١ بتغريم ذكرى غالى قرياقص مالتى قرش لعرضه للبيع فحما بسعر أزيد من المحدد

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

الأدباء العشرة ! — حد الأديب — خداع التاريخ ! — حكم القراء — فى البلاد العربية — أجوبة ... — الأديب الحادى عشر ! . . . .

الأدباء العشرة !

حديثى اليوم عن الأدباء العشرة ، ولست أدرى لماذا آثر توفيق الحكيم أن يكونوا عشرة ؟ أذلك سر « العدد » أم سر « المعدود » ؟ . . . وليس ذلك سؤالى وحدى ، فقد سألنيه نصفُ من كتبوا إلىّ من القراء ؛ أما توفيق الحكيم فيقول : لست أعنى العشرة عداً وإحصاءً ، فقد يكونون أقلّ من ذلك أو أكثر ؛ ولكنى عنيت أن الأدباء فى مصر قلة ! . . .

ولكن القارئ أحمد أحمد الطاهر بالسلسلة لا يرضيه جواب الأستاذ الحكيم ، فيحاول أن يكشف [illegible] إلى أسبابه ، ويشيِّنى إلى مقال قديم للأستاذ الحكيم عنوانه « أدباؤنا المعاصرون والمرأة » نشره فى مجلة الثقافة ، ثم عاد فنشره فى كتابه « تحت المصباح الأخضر » وذكر فيه عدة من الأدباء يقاربون العشرة ؛ أفهؤلاء يعنى أم هو لا يريد أن يتورَّط فى معركة جديدة ؟ . . . وهو « يكره النضال مع الأدباء ولا يكرهه مع النساء » كما يقول القارئ توفيق حسن وصفى بالإسكندرية !

حد الأديب :

ويسألنى القراء : محيى الدين القبانى ، وإبراهيم سعد عامر ، ومحمد الأنور الحلبى ، وتوفيق حسن وصفى ، وفكريه عثمان حسن :

« من هو الأديب الذى عنى ويعنى توفيق الحكيم ؟ » وإنه لسؤال يحق لكل قارئ أن يسأله ، وإن بدا جوابه بمكانٍ من الوضوح لجمهرةٍ من القراء . أما توفيق الحكيم فيعنى « الأدباء البارزين الدائبين على الإنتاج » ، وهو تحديد يستوقف الفكر والنظر ؛ فإن « البروز » و « الدأب على الإنتاج » إن صلحا أن يكونا من مقوِّمات « الشهرة » لا يصلحان أن يكونا من مقوِّمات « الأدب » أو من مميزات « الأديب » ؛ ولقد يخلد الأديب بمقالٍ يتيمٍ لا يؤثر عنه غيره ، ويخمل أدباء كان لهم فى الحياة شهرة وصيت !

خداع التاريخ !

ولقد يجوز أحياناً على التاريخ ما يجوز على الناس فى غفلاتهم ، فتخدعه الثرثرة وبريق الشهرة والدعاوى المكررة ، فطمس فى بعض صفحاته أعلام كان ينبغى أن تطمس وتعفو آثارها ، وتنسى أعلام وحادثاتٌ جسام ؛ ولكن شأن التاريخ فى ذلك سلبىٌّ لا إيجابى ، فإن له الأمر فى امتحاء [illegible] يهمله من الناس وما يهمله من الحادثات ، ولكن ليس له قوة يبعث بها الباطلَ على الزمان ! . . .

. . . ولكنى لم أخلص بعدُ إلى حدّ الأديب : أهو الكاتب الدائب الموصول الإنتاج ، أم هو المنشىء البليغ النافذ بسحر البيان ، أم هو المفكر المتطلع إلى الحقيقة يكشف من أسرارها وينفذ إلى سرائرها ، أم هو المتخيِّل الحالم الذى تتزيَّن له الطبيعة فى أرقّ شفوفها فترتيه ضوءَ الشمس على جدار الحبيبة أكثر إشراقاً منه على بيوت الناس ، أم هو المصلح الآمل يتصبَّاه المثل الأعلى فما ينفكّ داعياً إليه مصوِّراً مثاله معبِّداً سبيله ؟ . . أهو واحدٌ من هؤلاء ، أم هو كل هؤلاء ؟ . . أم هو « الإحساس المعبِّر » فى أى صورة من صور هؤلاء ؟ . .

حكم القراء :

وبين يدىّ الساعةَ ما اجتمع إلىّ من بريد القراء فى هذا الاستفتاء ، فماذا كان حد الأديب فى رأى جمهرة القراء ؟ . .

أما الأدباء العشرة الذين نالوا أكثر الأصوات فيكاد يجتمع رأى القراء منهم على أربعة ، ثم تتوزّع الأصوات بين عشرين أو ما يقرب من عشرين — ولا أسمّى أحداً — ؛ وأستجمع صورة هؤلاء وهؤلاء فى ذاكرتى وأجمع إليهم أسماءً أخرى لم تخطر ببال أحد ممن كتب إلىّ وإن لهم لمكاناً بين أدباء الجيل — فيدهشنى ما رأيت ...! وماذا رأيت . . . ؟

١ — إن الأديب — فى رأى جمهرة القراء — هو من يكثر تَرداد اسمه فى الصحف والمجلات وإن لم يكن له فى الأدب شأن ؛ وليس بأديب من لا يتصل سببه بصحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات الذائعة وإن كان من الأدب بمكان !

٢ — إن ذيوع الصحافة العربية وقوة انتشارها كان على حساب « الكتاب » ، فكل قارئ تكسبه « مجلة » تخسره « مكتبة » !

٣ — وتقع قدر « الأديب » فى ميزان قارئه بكثرة ما يُنشر له وقُرب عهد القارئ به ، فإذا غاب عن قارئه فترةً نزل عن مرتبته درجة ؛ فإذا بلغت هذه الفترة شهراً فقد أوى إلى زاوية النسيان ، فإذا بلغت عاماً فليس بمستحق أن يحتفظ بلقب الأديب ؛ فالقاعدة هى « الاستمرار » !

٤ — حُكم القراء اليوم أقربُ إلى « التجرّد » مما كان منذ سنوات ؛ فليس لاختلاف الرأى بين الكاتب وقارئه فى السياسة ، أو فى الأدب ، أو فى الدين — أثر فى الحكم على منزلته الأدبية ، فثمة قراء عدّوا فيمن « يحبون من الأدباء » طائفةً يعيبون مذاهبهم وينقدون طرائقهم ويسفّهون آراءهم !

فى البلاد العربية :

ولم يشترك فى المسابقة من البلاد العربية إلا بضعة نفر ، ليس بينهم من العراق أحد ، على كثرة عناية إخواننا هنالك بآدابنا وأدبائنا . ولم أقدر هذا الشأن قدره حتى جاءنى فى الأسبوع الأخير رسالة من « كمال نور الدين : اللاذقية » يقول فيها :

« . . . إننا نقف من هذه القضية كمتفرجين فقط ، لا يهمنا أربح هذا أم ذاك ، فإن الذين لا يهمهم شأننا لا يعنينا شأنهم . . .

« إننا نحب أدباء مصر ونعرفهم جميعاً ، ولكن أين هو المصرى الذى يعرف رئيس جمهورية سوريا . . . ؟ »

وإنه ليعيب علينا أننا نُغفل ما بيننا وبين البلاد العربية من روابط ، وينكر علينا الإسراف فى الحديث عن أنفسنا دون أن نلتفت إلى حق الأخ والجار ؛ ولقد يكون فى هذا الذى يقول جانبٌ من الحق ، لا كل الحق ؛ فليس من الحرص على معانى الأخوة أن أقول لأخى كلما جدّ أمرٌ بينى وبينه : أنا ... وأنت ... ! إن ذلك خليق أن يبعث فى كل نفس معنى من الأثرة يباعد بين الأخوين ؛ ثم ما شأنى أنا إذا كان أخى لا يحاول أن يُسمعنى صوته كى [illegible] ؟ ومن أين لى أن أعرف من شئونه ما لا يريد أن يعرّفنى ؟ . . . هذا بريدى إليه كل صباح وكل مساء فى الصحف والمجلات والكتب ؛ فأين بريده إلىّ ؟ . . . ومع ذلك فليس فى بلادنا مصرى واحد لا يعتزّ بالأخوّة العربية فى القدس ودمشق وبغداد وإن جهل من شئونها ما لا بد أن يعرف ... ولكنه عَتْب أخ يطمع فى المزيد من الوداد ، فهى تحية كريمة وإن بدت لوناً من الخصام !

وددت لو كان فى طوقى أن يكون الاستفتاء : من هم الأدباء العشرة الأحب إليك فى مصر والبلاد العربية ؟ ... ولكنى خشيتُ التقصير فى حق أدباء العروبة فى القدس ودمشق وبغداد ؛ لأن أدباء العروبة فى القدس ودمشق وبغداد يعيشون فى مثل صوامع النُّسّاك !

ومع ذلك فليس يفوتنى التنويه بما ورد إلىّ فى هذا الاستفتاء من رسائل القراء فى البلاد الشقيقة ؛ إن فيها

— على قلتها — من تحرّى الدقة وقوة الحكم ما لم أر كثيراً من مثله.

أجوبة:

وفي أجوبة بعض القراء تفصيل حقيقٌ بالتأمل؛ فلم يكتف كثير منهم بذكر الأسماء، بل شفعوها بذكر الأسباب التي استندوا إليها فيما حكموا، وإلى القارئ أسوق منها هذه النماذج:

إمام ابراهيم إمام — وزارة الأوقاف:

«العقاد: من أراد أن يقرأ له فليبتعد عن كتابته السياسية وليقرأ له في الأدب فقط!»

***

أديب عباسي — شرق الأردن:

«الدكتور أحمد زكي: وسيستغرب القراء، فالدكتور رجل كيمياء ومعادلات وأنابيب وعناصر ومخلوط، فأين هو من الأدب؟ ...... وأعتقد أن الدكتور زكي أقدر من «أدّب» العلم للعربية في أسلوب كله طلاوة ورشاقة....»

«الدكتور زكي مبارك: وهو في الطليعة بين أدبائنا نشاطاً وحسن إنتاج، ولكن لا يعجبني منه اعتداده الصارخ وكثرة إعلانه وشكواه الدائمة!»

***

إبراهيم سعد عامر:

«طه حسين في مستقبل الثقافة، وتوفيق الحكيم في يوميات نائب في الأرياف، وأحمد حسن الزيات في مقال الزعيم المنتظر......»

***

محمد عثمان التمر — الشبكة:

«إبراهيم عبد القادر المازني: كاتب عجيب، ربما تقرأ له عدة مقالات في يوم واحد؛ روح الفكاهة في مقالته تسرق وقت القارئ وتسترق قلبه».

الأديب الحادي عشر!

من رسالة الآنسة فكرية عثمان حسن — دبلوم معهد التربية:

«... دهشتُ ياسيدي إذ أخذت المسابقة دورها الجدي، وما كنت أحسب إلا أن كل مصري يعتبر نفسه أديباً!!...

«... كنت أحسب أن الردود التي ستصلك قليلة جداً، وكأن هذه الأقلية هي الشخصيات المتواضعة التي تناولت غيرها من الأدباء، وفضلتهم عن غيرهم، وأقنع كلٌّ منهم نفسه بأنه الأديب الحادي عشر!!»

كلا، ولعله لهذا لم تزد الرسائل التي وردت إليّ على بضع وعشرين رسالة!... وحسبُ مصر أن يكون فيها بضعة وأربعون أديباً عشرة منهم في الصف الأول، وكل من يليهم بعد ذلك من «الناجحين» الحادي عشر مكرراً..!

«فاف»

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
احمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
مـ
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
مـ
ثمن العدد ١ قرش صاغ

قصيبات :

فضــــاء !

[أيتها الشاعرة الحائرة ! قد انتهى قلبى إلى فضاء ، وذلك جنايتك على الشاعر الوديع]

جُزتُ الحيـــاةَ إلى فضاءٍ كابٍ
خَرِبِ الجوانحِ شاسعِ الأسبابِ
شُلَّتْ لفرطِ الصَّحْوِ كلُّ مشاعرى
واهْوَلِ ما صارعتُ من أنصابِ
مبهوتٌ حولكَ يافضاءُ مدارعى   مُتجرداً من صورتى وإهابى
مُتخطِّياً أســوارَ إحساسى إلى
ما فى رحابكَ ، لأبدأَ بخرابِ !
جثمتْ عليه مخـــاوفٌ ما جازها
بَشرٌ أتـــاه ملاكٌ وتبابِ
تمتدُّ فيه وحشةٌ مرهوبةٌ   قد راعها صحبةُ الأحبابِ
لا همســـةٌ فيه ، ولا [illegible]
لكنْ سكونٌ ضاربُ الأطنابِ
صمتٌ كأنَّ الصمتَ فى بيدائِهِ
إعوالُ ريحٍ أو عُــواءُ ذئابِ
لا هبّــةٌ فيه ، ولا شبحٌ ، ولا
صوتٌ ، ولا ذكرٌ من الأحبابِ
لا نضرةٌ فيـــه وليس به ندًى
لكنْ يبابٌ أصــفرُ الجلبابِ
لا هالةٌ فيـــه ، ولا نورٌ ، ولا
ذرٌّ ، ولا ومضٌ ينيــرُ شِعابى
لكنْ فراغٌ فارغٌ من كلِّ ما
فى هذه الدنيا من الأسلابِ
أبصرتُ فيه نهايتى موصولةً   بدموعِ أترابى وشجوِ صحابى
وقرأتُ بين ســطورِه معنى البِلى
فبكيتُ حتى لستُ أعرفُ ما بى !
قد أحـــدقتْ صحراؤهُ بى بغتةً
ففقـــدتُ ذاتى واحتسبتُ شبابى
ونسيتُ روحى وافتقـــدتُ معالمى
فكأننى لا شىءَ غـــيرُ يبابِ !!

* * *

كم كنتُ أوجسُ خيفةً أنْ ألتقى
بكَ يا فضاءُ على بســاطِ عذابى
لكننى قذفتْ بنفسى شِـــقوتى
نحـــوَ الذى فى قلبكَ المرتابِ
حرّقتْ وجـــدانى ، وقطّعتِ المدى
قلبى ، وغصّتْ بالردى أكوابى
أنسى الفضـــاءُ إليكَ بى متهالكاً
حتى معانى النورِ فى أهـــدابى
ولقيتُ فى أعماقكَ الخرسِ الذى
ماتتْ لديه مشـــاعرى ورغابى
أنا لا أحسُّ ! ولا أصيخُ ! ولا أرى !
يا ويلتا ماذا إليكَ رمى بى ؟!

. . . .

وإذا بسرٍّ مبهمٍ فى أضلعى   يُبلى موانى ، موقظاً أعصابى
وإذا بصـــوتٍ فى دمى متموجٍ
كتموّجِ الأنســـامِ فى الأعشابِ
خفّتْ له روحى كأنّها   هبّتْ بجنابين رقدةٍ وغيابِ
فعجبتُ كيف أفقتُ من غيبوبتى
وكمانَ خـــدّرتِ المنونُ لُبابى
وسألتُ : [منْ يا صوتُ صاحبكَ الذى
أجراكَ تبرقُ فى الفضاءِ الكابى ؟!]

فسمعته متدفقاً فى مسمعى :
[أنا سرك الباقى على الأحقاب
ولقد سرت فيك الحياة وإنما
هى نشوة والموت فى الأعقاب
فالشمس تجمل فى المغيب وتزدهى
بفرائد الألوان والأثواب !
والطير قبل الموت يبكى نفسه
غرداً يزقزق فوق زهر الغاب
إن الحياة لها حدود ما تنى أسوارها مسمومة الأنياب
فإذا تخطتها النفوس ، تمزقت
فوق السياج على رءوس حراب
وكذا الأحاسيس التى كم ذرت فى
إعصارها نهباً لكل مصاب
حتى إذا حملتك صرصرها إلى
واد تكنفه الـ[illegible] السكاب
ولوت تلتمس العزاء ، مكابداً
ما كابدت دنياك من أوصاب
ودفنت قلبك فى الخراب مودعاً
ما فيه من مستعذب الآراب]

. . . .

فصرخت صرخة يائس متمرد
مستنجداً بفتوتى وشبابى !
لكن طوانى فى فسيح ملائه
ذاك الفضاء ! مخدراً أعصابى !
فقيت روحى وافتقدت معالمى
وكأننى لا شىء غير يباب ! !

عبد الرحمن الخميسى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر